

## الفصل الثاني

فلسفة الدعاية الأمريكية

obbeikandi.com

obeikandi.com

## الفصل الثاني

### فلسفة الدعاية الأمريكية

تقوم الدعاية الأمريكية على أسس برجماتية بحتة تمتد أصولها إلى أساليب الإعلان التجاري وانتهازيته وهذا وضع طبيعي بالنسبة لنظام رأسمالي احتكاري فقد قدرته على بيع الرأسمالية إلى شعوب العالم كأيدولوجية بينما الأفكار الاشتراكية تجذب أغلب هذه الشعوب بصورة أو أخرى سواء كان منبعها الماركسية اللينينية أو الاشتراكية المثالية الخ . . . ورغم أن الأساس البرجماتي للدعاية الأمريكية يعطيها مزيداً من حرية الحركة حسب ظروف ومقتضيات الحال إلا أنه في الوقت نفسه يمثل ناحية الضعف الأساسية فيها بما يفرضه من التناقض وعدم الاستمرار والثبات واللجوء إلى الإرهاب والفتن والخديعة والكذب والإثارة وسائر حيل الحرب النفسية للالتفاف حول الأيدولوجية المعادية والنحر فيها بدلا من مواجهتها بأيدولوجية منافسة قوية في منطقتها وحججها .

ويكاد يتفق رأى كبار المفكرين في العالم الرأسمالي اليوم على أن الرأسمالية كنظام لم تعد في موقع يسمح لها بأن تقدم أفكاراً تغري الجماهير بمتابعتها، فالجماهير حتى في البلاد الرأسمالية قد أخذت تنبذ النظرة الاستغلالية للعالم الخارجي وهذه هي أزمة الأيدولوجية الرأسمالية الحقيقية . وهذا وضع طبيعي بالنسبة لنظام لا يقدم للعالم اليوم سوى الحرب أو البطالة والاضخم والغلاء في وقت تسرى فيه الأفكار الاشتراكية سريان النار في الهشيم .

ومع ذلك فالتناس على دين ملوكهم والأفكار السائدة في المجتمع الرأسمالي ما زالت بالضرورة أفكار الطبقة الحاكمة وإن أخذ تأثيرها على الجماهير يتأثره الضعف .

ولكى تحافظ الرأسمالية على تفوقها الروحي لم تجد أمامها سوى المزيد من

الدعاية القائمة على أسس الحرب النفسية<sup>(١)</sup> . والحقيقة أن أزمة الأيديولوجية الرأسمالية إنما ترجع إلى تغير موقفها التاريخي من حركة تقود التقدم في القرنين الماضيين إلى حركة رجعية تعمل على إيقاف تطور المجتمع في قرننا الحالي بعد وصول الرأسمالية إلى أعلى مراحل الاستغلال الاحتكاري وبهذا للديمقراطية الليبرالية التي كانت دعائمها الأولى في القضاء على النظم الإقطاعية المستبدة في بداية الثورة الصناعية . ومن الطبيعي تحت هذه الظروف أن تتناقض مصالح وأمان أغلبية السكان مع القيم السائدة في المجتمع الرأسمالي المعاصر القائم على الاستغلال والتوسع الاستعماري<sup>(٢)</sup> .

فالأفكار وهي نتاج النشاط الواعي للجماهير ، مقيدة آخر الأمر بعالم الحقائق مهما اتسع نطاق التضليل الأيديولوجي .

وهذا هو مصدر التناقض الحاد الذي يحدد موقف الرأسمالية المعاصرة في حرب الأفكار : فهي من جهة لم تتعرض من قبل لمثل هذا الموقف الملح الذي تشتد فيه الحاجة إلى وسائل مأهولة للتحكم الروحي في الجماهير لمواجهة انتشار الأفكار الاشتراكية ومن جهة أخرى تسم هذه الأيديولوجية بطابع الانهيار إذ تبرهن يوماً بعد يوم على أنها لم تعد ملائمة أكثر فأكثر للسيطرة على قلوب الناس وعقولهم .

وتفصح الأيديولوجية الرأسمالية عن أزمتهما بطرق شتى تبرز فيها سيادة روح التشاؤم من المستقبل الأمر الذي يعكس حالة نظام اجتماعي لم يعد له مستقبل وأصبحت توقعات قاداته تنحصر في الدمار . ولعل هنا أن يتعكس بجلاء في فلسفة التاريخ البرجوازية التي تخلت عن نظرية التقدم التي كانت تنادي بها الرأسمالية الليبرالية في شبابها وأخذت تروج لمبدأ الجمود الاجتماعي والدورات التاريخية التي بموجبها يتحتم على كل مدينة أن تنهار وتعود لنقطة البداية في تطورها .

( ١ ) لمزيد من التفاصيل راجع الفصل الخامس بالحرب النفسية من كتابنا « انزاي العام والحرب النفسية » الجزء الأول .

( ٢ ) — Laski, Harold : "Liberty In The Modern State". Pelican, 1937 - P. 19 .

ويشرح الأستاذ " هـ . ا . كار " المؤرخ البريطاني الكبير أسباب انتشاره في فلسفة التاريخ الغربي قائلاً : « في القرن التاسع عشر كان المؤرخون البريطانيون على بكرة أبيهم ينظرون إلى مجرى التاريخ كظاهرة تقدمية ذلك لأنهم كانوا يعبرون عن أيديولوجية مجتمع في حالة تقدم سريع ملحوظ ، كان التاريخ مليئاً بالمعاني بالنسبة للمؤرخين البريطانيين طالما بدا أنه يسير في الطريق الذي يريدونه ، أما الآن وقد أخذ التاريخ اتجاهاً مخالفاً فإن الاعتقاد في معنى التاريخ أصبح ضرباً من اللغو » . ويضيف كار متبهماً : « يقال أن نيكولا الأول قيصر روسيا قد أصدر أمراً يحرم فيه استخدام كلمة التقدم ، واليوم يكرر الفلاسفة الغربيون الشيء نفسه (١) » .

ويظهر هذا التشاؤم وفقدان الإيمان في التقدم في الأدب الأوتوبي الغربي بصورة أكثر استرعاء للنظر ، فعظم هذا الأدب يصور عادة مأساة رهيبة تبديد الجنس البشري أو صورة لمجتمع منحل تحكمه الآلة ويقضى على كل القيم الإنسانية وينتج نظاماً سياسياً معطشاً للدماء تتضاءل بجانبه فضائم النازية .

وهذا اللون من الأدب فضلاً عن أنه يعكس فقدان الإيمان بالمستقبل والتقدم يعتبر في الوقت نفسه بمثابة نوع من النقد الاجتماعي لأسلوب الحياة الذي يتجرد الناس فيه من إنسانيتهم ويلحقوا بالآلات .

ولا شك أن هذه الصورة التشاؤمية مستوحاة من حقائق المجتمع الرأسمالي المنحل الذي لم يعد يملك شيئاً يقدمه للناس ، فالمستقبل الذي يصوره لم غير مبشر بالأمل إطلاقاً .

ونتيجة لذلك أصبح الترويح الاعمقور في مجال الفاسفة ، ومحاولة صبغة بالصبغة العلمية الممارسة المألوفة الآن بجانب التريج لمذاهب غيبية صريحة .

ولقد فسر " هنرى ماجد " الأستاذ بجامعة نيويورك ظاهرة الهجوم على العقل والمعرفة العلمية من وجهة النظر السياسية فقال :

« إن هدف الفلسفة هو السعى وراء الحقيقة . أما هدف المجتمع فهو المحافظة على ذاته ، ومن هنا تنشأ الحاجة إلى وضع حد فاصل لاقتفاء الحقيقة . فالمجتمع قد يشعر - ربما عن حق - أنه من الضروري في سبيل المحافظة على ذاته أو عدالته أو رفاهيته وضع حدود على اقتفاء المعرفة ، لأن اقتفاء المعرفة كأسى هدف من وجهة نظر الإنسان ، غالباً ما يتضمن بذور الخروج على النظرة السياسية السائدة » .

وعلى أساس هذا الاقتناع يقترح " ماجد " الأهداف الثلاثة التالية للفلسفة السياسية :

أولاً - التعليم لبث الولاء : بأن يؤخذ الشباب باليد قبل أن يصلوا إلى مرحلة النضوج العقلي وتنمية النظرة النقدية ، ويلقنوا ماهية الإخلاص ، ولين يكون هذا الإخلاص .

ثانياً - التعليم للنخبة أو القادة : بمعنى أن يقتصر التعليم على النخبة المختارة الذين سيتسلمون مقاليد الحكم .

ثالثاً - التعليم للضامم : أى لمساعدة النخبة المختارة ( الحكام ) على اتقان علوم الحكم وذكورته<sup>(١)</sup>

ولا حاجة لنا لتبيان مدى الصلة الوثيقة بين تعاليم " ماجد " هذه وتعاليم ميكيافيللى . وبالإضافة إلى ما تقدم فإننا يمكن بسهولة أن نلمس تحولاً أساسياً في فهم الأيديولوجية الرأسمالية للطبيعة البشرية . فقد راجت الأفكار التي تصور الطبيعة البشرية كمحط للفراثر الدنيئة والميول الحيوانية . والحقيقة أن السر وراء ترويح هذا الاتجاه الفكري إنما يعود إلى سعى فلاسفة الرأسمالية إلى تبرة النظام من سيئاته وإلقاء تبعثها على الطبيعة البشرية نفسها وبالتالي إلى تبرير تحول الرأسمالية إلى جهاز للقمع . فإذا كانت الفراثر المدمرة هي التي تتحكم في الجماهير فإن هذا يبرر وظيفة السلطة السياسية في كبح جماح الإنسان وإدارة الجماهير .

ولا داعى - عندئذ - لأن نقنع أنفسنا على حد قول " جابرييل مارسيل " الوجودى الفرنسى - بأن من الممكن تعليم الجماهير « فهذا تناقض داخلى » . « فالفرد فقط وعلى سبيل الدقة الشخصية المديزة هى القابلة للتعليم ، وخارج هذا النطاق فالفرصة سانحة للتدريب فقط (١) » .

والواقع أن أزمة بل فقر الأيديولوجية الرأسمالية المعاصرة فى مجال الفكر الاجتماعى ، غالباً ما تختفى وراء قناع الأساليب العلمية والمبالغة فى استخدام الأساس التطبيقي للعلوم الاجتماعية كستار لابتعاد علم الاجتماع عن معالجة المشكلات الأساسية للحياة الاجتماعية والتحول إلى دراسة مشكلات لا صلة لها بالموضوعات الأساسية المتصلة بضرورة إعادة التنظيم الاجتماعى

ولهذا دلالة كبرى ، فأمام النقد الاجتماعى المتزايد ونتيجة لتخلى الفكر الرأسمالى عن مبادئه الثورية اللبرالية الأولى ( مبادئ العقد الاجتماعى - سيادة الشعب - حقوق الإنسان ) تحول علم الاجتماع الآن إلى تبرير السياسات الرجعية ونظريات التفرقة الجنسية . . . إلخ . وأخذ يستخدم البحث التطبيقى كوسيلة لمساعدة الدولة الرأسمالية فى حكم المجتمع .

وفى هذا يقول س . ريت ميلز عالم الاجتماع الأمريكى الشهير : « لقد فقد علم الاجتماع واقعه الإصلاحى وأصبحت اتجاهاته لمعالجة المشكلات المتنازلة والمسببات الثانوية بمثابة تحول لخدمة مصالح الاحتكارات ، والعسكرية والدولة (٢) » .

والحقيقة أن الأزمة الأيديولوجية لا تتضح فقط فى الفلسفة والفكر السياسى والاجتماعى ، وإنما أيضاً فى المجال الثقافى فالإمحطاط والاهتمام المرضى بالفرائز الحيوانية وأساليب السلوك المنحرفة والقسوة والانحلال أصبحت الموضوعات المفضلة للأدب والفن ، وقد تحدثنا عن ذلك تفصيلاً فى الجزء الأول من كتابنا « الرأى

Marcel, Gabriel: Les Hommes Contre L'Humain" Paris 1951 - P. 13. (١)

Mills, C. Wright : "The Sociological Imagination" New York, 1959 - P. 92. (٢)

العام والحرب النفسية» . وهذه الظواهر القبيحة لا تمثل مع ذلك الجزء السائد . فلا زالت قطاعات واسعة من الناس تهتم بالثقافة الجادة والفن الحقيقي . ولكن جنباً إلى جنب مع هذا يندل تجار الثقافة جهوداً كبيرة لإنتاج بدائل رخيصة للثقافة الجادة بلحذب الملايين من الناس ، فالثقافة اليوم تكس بصورة متزايدة مرض الرأسمالية الميت وفرعها من المستقبل والحقيقة وانتمفكير السليم . فرزعها من الإنسان نفسه .

ولعل أخطر ما يواجه الأيديولوجية الرأسمالية أزمة الثقة العميقة التي يبدتها الجنس البشري حيال الرأسمالية وكل مؤسساتها الاجتماعية والسياسية : وأوضح دليل على ذلك تحلى جانب كبير من الشعوب عن الرأسمالية كنظام حكم : ( الدول الاشتراكية ومعظم الدول الحديثة الاستقلال ) بعد أن فقدت جاذبيتها كنموذج اجتماعي مقبول .

وتعكس هذه الأزمة بصورة متزايدة في السنوات الأخيرة داخل قلاع الرأسمالية نفسها ، ولعل من أهم مظاهر ذلك تزايد نشاط الزوج والشباب وثورتهم التي هزت جميع أنحاء العالم الرأسمالي ، حتى لقد أصبح على الرأسمالية - حتى في أعنى الدول الرأسمالية - أن تخفى وجهها الحقيقي وأن تظهر نفسها بمظهر ليس لها سواء على المستوى الفردي أو على مستوى النظام الاجتماعي ككل .

وفي هذا المعنى يقول السناتور روبرت كينيدي :

« إن الرأسمالية قد أصبحت الكلمة القذرة في الشرق رغم كل الدعاية الأمريكية والمساعدات الاقتصادية (١) » .

ويقلق هذا الوضع المفكرين الغربيين إلى أنصى حد ، فبينما تفقد الرأسمالية ثقة الجماهير تتزايد جاذبية الاشتراكية وخاصة في البلدان النامية ، وفي هذا كتب " ستراوس هوييه " يقول متأسياً :

« لقد أصبحت القاعدة في البلدان النامية قبول نوع من الاشتراكية

(١) Kennedy, Robert : "Just Friends And Brave Enemies". New York 962 - P. 118.



والتخطيط الحكومى فى الوقت الذى لا تلتقى فيه فكرة المجتمع الاقتصادى الحر التى ترتبط بالولايات المتحدة تأييداً كبيراً فى آسيا وأفريقيا ومعظم بلدان أمريكا اللاتينية (١) .

حقاً لقد مضى الوقت الذى كان دعاة الرأسمالية يروجون فيه لمبدأ قديمة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج التى هى أساس المجتمع الرأسمالى . فاليوم يتجه عدد متزايد من الدول - حتى الدول الرأسمالية نفسها - إلى الاعتراف التام - إن لم يكن القانونى - بكثير من الاجراءات الاشتراكية فى صورة التأميم وغيره . وبذلك تقبل - ولو نظرياً - فكرة أن تركيز الثروة فى أيدي القلة تهدد بالخطر مصالح المجتمع وهى فى بعض الحالات تؤكد ذلك القبول بالتشريع المعادى للاحتكارات .

وكذلك أصبحت المجاهرة الصريحة بالدفاع عن الاستعمار جزءاً من مخافات الماضى لأن الشعوب لم تعد تتقبله .

وينطبق هذا القول نفسه على فكرة مسئولية الرجل الأبيض أو الرسالة الحضارية للاستعمار ، والحقيقة أن تجربة فيتنام والجزائر والكونغو والعدوان الإسرائيلى الإمبريالى على الدول العربية قد أثبتت للعالم أن مثل هذا الحديث ليس إلا ستاراً للحروب الاستعمارية التى تفيد الرأسماليين وتلدغ الشعوب ثمناً من أرواحها ورفاهيتها وحرمانها .

وهكذا أصبح من المستحيل - فى عصرنا هذا - الدفاع عن الحرب ، تلك المؤسسة الرأسمالية الأصلية .

فإذا كانت الرأسمالية فى الماضى قد استطاعت أن تخفى حقائق الحرب عن الجماهير الشعبية تحت شعارات المصالح القوية والحرية : . . إلخ . فإن هذا اللعب بالشعارات لم يعد يجدى مع الجماهير اليوم . فبالرغم من استمرار تمجيد بعض العسكريين للحرب فالملاحظ أنه لا توجد دولة واحدة تستطيع أن

تجهر رسمياً بدعوة الحرب ، بل إن أكثر الدوائر الحاكمة عدوانية نجد نفسها مضطرة إلى الإدعاء بأنها لا تبغى إلا السلام . وهي مجبرة على ذلك لأن تقدير النظام الاجتماعي من وجهة نظر الجماهير في عصرنا هذا أصبح يرتبط بوقفه من قضية الحرب والسلام .

كل هذه أدلة على أن النظام الرأسمالي قد أنهك نفسه ولم يعد يقابل احتياجات التطور الاجتماعي لعدم قبوله للتغيير . وإصراره على مبادئه الاستغلالية الأساسية . ومن هنا أصبح على هذا النظام أن يلائم نفسه لمقابلة حقائق التاريخ الجديدة في شتى الميادين بعد هزائمه المتكررة أمام الاشتراكية وقوى التحرر الوطني . وهذا التلاؤم كثيراً ما يعبر عنه في شكل تنازلات تمثياً مع روح العصر ومقتضياته ، تنازلات لم يكن من الممكن منذ عقدين أو ثلاثة أن تحدث . وهي تنازلات تمتد لتشمل مجالات اقتصادية واجتماعية وسياسية .

ومع ذلك فهذه التنازلات لا تعني أن الرأسمالية قد غيرت جلدها أو أنها تتحول إلى الاشتراكية فما زالت الرأسمالية نظاماً اجتماعياً استغلالياً ، بسبب للكتل الجماهيرية آلاماً لا حصر لها .

ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن التغيير الحادث هو مجرد مجازاة لمقتضيات الأزمة العامة للرأسمالية .

ولقد انعكس هذا كله على وظائف الأيديولوجية الرأسمالية التي تمر الآن بمرحلة تغيير أساسية في تكتيكاتها . فبدلاً من تبرئة الرأسمالية ومحاولة تبرير مؤسساتها ، أصبحت مهمتها الأساسية اليوم تصوير الرأسمالية وكأنها غير رأسمالية . فهذا هو الهدف الأول للدعاية الأيديولوجية اليرم عن طريق تمويه المضمون الحقيقي للنظام الاستغلالي القائم . ويكشف هذا عن مدى ضعفها ، ذلك أنها تواجه مشكلة لا حل لها ، مشكلة الدفاع عن المثل العليا والمؤسسات الرأسمالية ورفضها في الوقت ذاته ، وهو ما يجبرها على التصادم مع الواقع نفسه ولا بد للواقع أن يفوز مع الوقت ، بينما تتحلل الأيديولوجية التي تفقد صلاتها

بالواقع وتفقد تأثيرها على الكتل الجماهيرية . وهو ما يحدث حالياً باعتراف الفلاسفة والمفكرين الغربيين أنفسهم .

فهذا " دانييل بيل " يقول في كتابه « نهاية الأيديولوجية » :

« إن الأيديولوجية التي كانت ذات مرة طريقاً للعقل قد وصلت إلى نهايتها المحتمة (١) » .

ويقول " رونالد ستيل " : إننا آخر الأيديولوجيين . إننا نعيش عصر موت الأيديولوجية وشعاراتها التي عني عليها الزمن (٢) » .

والواقع أن المشكلات الأيديولوجية التي تواجه الرأسمالية في طورها الاحتكاري الإمبريالي الحالي تتطور بطريقة معقدة وغير قابلة للحل حتى إن التسول كثيراً ما يتردد اليوم في البلدان الرأسمالية بأن الحياة الاجتماعية ينبغي أن تجرد من الأيديولوجية بصفة عامة ، مما يدل على مدى الإفلاس الفكري وعدم القدرة على خلق أيديولوجية تواجه الأيديولوجية الاشتراكية على اختلاف مدارسها .

ومن هنا كان جهدهم لتجنب التحام مباشر بين الأيديولوجيتين - ومن هنا أيضاً يظهر الكلام عن الطابع الخاص الأيديولوجية الغربية الحديثة . باعتبارها أيديولوجية ديمقراطية تحتمل اختلاف الآراء ووجهات النظر وبالتالي ليست مطالبة بإعطاء تفسيرها الشامل للعالم في مواجهة الأيديولوجية الاشتراكية ذات النظرة الشاملة .

وفي هذا المعنى يقول " ادوارد مارو " مدير وكالة الإعلام الأمريكية :

« إن بلادنا هي بلاد الأيديولوجيات المتعددة فالديمقراطية ليست بسيطة بل معقدة ونحن نسمح بل نشجع الاختلاف . فالتنوع هو شعارنا . وقد جعلناها عقيدة وطنية ألا تكون لنا عقيدة » .

Bell, Daniel : "The End Of Ideology". Glencoe, Illinois, 1960 - P. 370. ( ١ )

Stel, Ronald : "Pax Americana". New York, 1967 - P. 27. ( ٢ )

ولا شك أن هذه المحاولات كلها تستهدف أن تجعل من عجز الأيديولوجية  
الرأسمالية الحديثة فضيلة : هي بلا شك فضيلة خداع الجماهير .

وبناقش " فرانك جونسون " أسباب هذا الضعف فيقول :

« يقال إنه ليست لنا أيديولوجية أمريكية وهذا الاتهام حقيقي فعلا فنحن  
لا نملك أيديولوجية لأننا فقدنا الثقة بصورة كبيرة في المبادئ التي جعلت منا  
في الماضي أمة عظيمة . لقد زرعنا في أنفسنا كשב عقدة نقص فردية  
وجماعية . بلننا نخجل من أنفسنا <sup>(١)</sup> . »

وبعد . فإذا كانت الأيديولوجية منهجاً للتفكير يعبر عن نظرة معينة للعلم  
وفهماً معيناً لواجبات المجتمع وأهدافه فإن للرأسمالية الحديثة أيديولوجيتها أيضاً  
لا شك في ذلك . حتى إذا لم تتخذ شكل فكرة محددة واحدة مقبولة من  
الجميع . ولكن كثيراً من المفكرين يعلون أن الرأسمالية لا تستطيع أن تعبر اليوم  
بصراحة عن الرمز الحقيقي لمعتقداتها ، ومن هنا كان التعدد الأيديولوجي بمعنى  
محاولة إعطاء تفسير مقبول من وجهة نظر الدعاية لكل مشكلة فردية على انفراد  
منعزلة عن الصورة العامة لتطهر المجتمع والأحداث السياسية .

وهذا - كما قدمنا - إنما يعكس ضعفاً أساسياً في الأيديولوجية الرأسمالية  
المعاصرة وبصفة خاصة في مواجهتها المدارس الفكر الاشتراكي المختلفة ، وهي  
حقيقة يدركها تماماً المفكرون في الغرب .

وفي هذا يقول " سول بادوفر " خير الحرب النفسية في الحرب العالمية  
الثانية : « أن كثيراً من نواحي التخلف في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية  
ترجع إلى إن سياستها بصفة عامة سلبية فهي : « ضد الشيوعية » ، « ضد  
السوفيتية » . « ضد الدكتاتورية » ، « ضد الناصرية » . ولكنها لم تقل  
« مع ماذا ؟ » . وسيظل هذا السؤال بلا إجابة طالما لم تعطى الولايات  
المتحدة العالم أيديولوجية ملهمة أو برنامج عملي إجتماعي إيجابي وهو ما تقتضيه

الأيدولوجية . وكقاعدة لا تستطيع أن تطرق شيئاً بلا شيء . وعلى ذلك فإن حربنا الأيدولوجية مثلها مثل سياستنا الخارجية تعانى من الفراغ الفكرى الروحى ولا بد أن يستمر الأمر على ذلك حتى يأتى الوقت الذى تستطيع فيه الولايات المتحدة أن توضع مثلاً أعلى يلتف حوله الناس متمثلاً فى برنامج عمل إيجابى<sup>(١)</sup> .

أما " بارات أوهارا " رجل الكونجرس فإنه يلمس مثل هذه الأيدولوجية فى المؤلفات اللبرالية الكلاسيكية ويقترح إعادة طبعها على نطاق واسع وتوزيعها فى البلاد الأجنبية معتقداً أن ذلك سيعاد على تعويض الضعف الأساسى للعالم الحر المتمثل فى عدم وجود نظرية سيامية عامة<sup>(٢)</sup> .

" وبارات أوهارا " يذكرنا هنا باستغلال نابليون لمؤلفات المفكرين الفرنسين الثوريين التى مهدت للثورة الفرنسية رغم تحريمه نشرها داخل فرنسا ذاتها . وعدم إيمانه الشخصى بها .

والحق لقد كان الأستاذ " مونز " موفقاً تمام التوفيق عندما أطلق اسم « أيدولوجية للتصدير » على الأفكار والنظريات التى وضعت لاستخدامات الدعاية السيامية الخارجية الأمريكية التى تحاول أن تعطى واجهة أيدولوجية لسياستها .

وفى هذا يقول :

« يحتاج الساسة الأمريكيون إلى واجهة أيدولوجية على الأقل لسياستهم الخارجية لكي تصبح أكثر احتراماً وأكثر مبيعاً<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) Whitaker, Jr. & Urban J. : (edited by) : "Propaganda And International Relations". San Francisco 1962 - P. 143.

( ٢ ) The Congress Records, Vol. 106 Aug. 1960 - P. 18873.

( ٣ ) Spiro, Herbert : "World Politics, The Global System", Homewood, Illinois, 1966 - P. 299.

واختيقة أن الفجوة بين الرمز الاستعماري الحقيقي لطبقة الحاكمة الرأسمالية وانتدع الأيديولوجي الذي يظهر لرجل الشارع كعقيدة رسمية قد اتسعت بصورة كبيرة في عصرنا هذا .

فصالح الاحتكارات تتطلب زيادة الاستغلال والقمع السياسي وقص أجنحة الديمقراطية وسحق كل مقاومة لخططهم السياسية الرجعية العدوانية ؛ وهو ما ينعكس في أفكار محددة للطبقة الحاكمة مثل وجهة نظرها بالنسبة للطبيعة البشرية وكافة الأفكار السياسية الإمبريالية التي تتجه إلى تبرير حقها في الحكم وتوسيع نطاق تدخل الحكومة التي تسيطر عليها الاحتكارات في كافة مجالات الحياة وتمكينها من خداع الجماهير وخداع الرأي العام بالمعلومات المضللة .

غير أن هناك مصاعب جمة تنف اليوم في طريقها نتيجة لانتشار الأفكار الاشتراكية بشكل أو بآخر بين الجماهير الشعبية في جميع أنحاء العالم . فلقد أصبحت هناك أيديولوجية موجودة فعلا لدى هذه الجماهير أكثر عمقا وأكثر فهماً وتختلف اختلافاً بيناً عن الأيديولوجية الرأسمالية . وهذا لا يعني أن الطبقات الشعبية في المجتمعات الرأسمالية ، قد تحولت بأية حال من الأحوال إلى الماركسية اللينينية ولكنها تعني أن هناك نهجاً معيناً للأفكار والمثل العليا يتصل بالفلسفة الاشتراكية قد أخذت تمتد جذوره وأخذ يكسب الكتل الشعبية ويساعدها على رؤية مصالحها الحقيقية بصورة أكثر وضوحاً . ولعل مدرستا الاشتراكية العربية مثالا حيا على ذلك ، وتحت تأثير هذه المثل العليا بدأت الجماهير تشعر أن من غير الطبيعي أن تظل القوة السياسية في أيدي قلة من الاحتكارات وبدأت تفهم حقيقة السياسة الخارجية الإمبريالية وخاصة فيما يتعلق بقضية الحرب والسلام واستغلال الشعوب المستعبدة .

وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح عندما نحلل الأيديولوجية الاستعمارية في المناطق التي تتصادم فيها أفكارها مباشرة مع الأفكار الاشتراكية — أياً كانت منابعها — أعني مجال الدعاية السياسية الخارجية حيث تحاول الإمبريالية بيع أيديولوجيتها لشعوب العالم الثالث بصفة خاصة مسترة تحت شعارات الحر .

والديمقراطية الليبرالية ، والحرية ، وحقوق الإنسان ، ونحو ذلك من شعارات الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية التي تعلم هذه الشعوب حق العلم من واقع تجربها وتعبيراتها مدى تنكر الإمبرالية لها في مجال التطبيق الواقعي في عصرنا هذا الذي نعيشه . . .

خلاصة القول إن المعركة الأيديولوجية التي تدور رحاها في عالمنا اليوم إنما تدور حول أي من الفيلسفين الاجتماعيين يمثل حقا هذه المثل : « السلام » ، « العدالة الاجتماعية » ، « الحرية » ، « الديمقراطية » . . .

### الدعاية والرأي العام الأمريكي :

يصف بعض الكتاب شعب الولايات المتحدة بأنه الشعب الذي يعتقد أنه أكثر شعوب العالم تمتعاً بالحرية وغيره عليها ، في حين أن أجهزة الدعاية العالية التخصص تعود الرأي العام في بلاده بأسلوب لا يختلف كثيراً عن الأساليب الدكتاتورية .

حقاً إن الرأي العام في الولايات المتحدة هو من الناحية النظرية القانون ، وهو أساس أنظمة الحكم وهو الذي يعين وظائف الدولة الرسمية والمهيمن على ما تتخذه من قرارات ، ولكن الواقع أن الدعاية العالية التخطيط العلمية التنظيم الشديدة - الدهاء هي التي تسوق الشعب الأمريكي كالفقير دون أن يدرك مدى وقوعه في جبالها . فوغم أن الحرية الشخصية غالبية في أمريكا إلا أن استقلال الرأي هناك ضئيل واختلاف وجهات النظر محدودة ، فكما تنتج الولايات المتحدة الأمريكية السيارة بالجملة ، يفكر أبنائها بالجملة . وهذا هو السبب في ضعف استقلال الرأي العام هناك<sup>(١)</sup> .

والواقع أن الدعاية في المجتمع الأمريكي انعكاس للمجتمع نفسه . فهو مجتمع تجارى ، ويترتب على سيادة الروح التجارية والرأسمالية قوة التأثير الشخصي والتأثر بالآخرين إلى الحد الذي يكاد يحو عنصر الفردية .

(١) مصطلح الحفناوى « الدعاية السياسية والاستعلام » ص ٢٥٨ .

وتبدو أهمية ذلك إذا ما عرفنا أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة ما هي إلا امتداداً للسياسة الداخلية وأن الطبقة التي تصنع القرار السياسي الداخلي هي نفسها التي تصنع القرار السياسي الخارجي فالعمليتان محكومتان بقانون واحد هو مصلحة الطبقة الرأسمالية الاحتكارية المهيسة على أجهزة اندوة وكافة أجهزة الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفزيون وسينما ... الخ .

### الدعاية الخارجية الأمريكية - أساليبها وأهدافها :

وتعتبر وكالة الاستعلامات الأمريكية الجهاز الدعائي الرسمي لحكومة الأمريكية . وتستخدم هذه الوكالة ١٢,٠٠٠ موظفاً وتصل ميزانيتها السنوية إلى ١٧٠ مليون دولار . ويشمل نشاط الوكالة إنتاج الوثائق والبرامج التليفزيونية للعالم الخارجي وإصدار المجلات والرسوم الهزلية والكتب في خمسين لغة ، وإذاعة ٨٥٠ ساعة أسبوعياً من الاذاعات الموجهة عن طريق صوت أمريكا وإدارة المكتبات والمعارض ومراكز الاستعلامات وغير ذلك من ألوان النشاط الذي يستهدف ترويض الولايات المتحدة وأسلوب الحياة الأمريكي وخاصة مبادئ الليبرالية بمفهومها الأمريكي - في العالم الخارجي .

وتعتبر إذاعة صوت أمريكا أكبر أقسام وكالة الاستعلامات الأمريكية . ويغطي إرسالها جميع أنحاء العالم وذلك عن طريق محطات التقوية والإرسال الموجودة في أماكن عديدة من العالم .

وتملك المحطة مجموعة ضخمة من الأشرطة المسجلة توزعها على محطات الإذاعة في العالم . وتشتمل هذه الأشرطة على أحاديث وتمثيلات وسير وقراءة وأوبرات وتسجيلات موسيقية ومناقشات علمية .

على أن الجانب الأكبر من ميزانية صوت أمريكا ينفق على إعداد الأخبار . وما هو جدير بالذكر أن الأخبار والتعليقات بالإنجليزية واللغات الأجنبية تعد في ضوء تعليقات واشنطن المحددة . وتمتد الوكالة مراكزها في ١٠٦ قطراً بالمواد الإعلامية الأخرى كالمجلات والكتب والكتيبات والتخصص الإخبارية ونصوص الخطب الهامة للصحف الأجنبية



ويرأس كل مركز من هذه المراكز ضابط للخدمة العامة ويعاونه عدد من المساعدين الأمريكيين ( الضابط الإعلامي والضابط الثقافي ) وهيئة من المترجمين والكتاب المحليين ومن السكرتيريين وسائر الموظفين .

ويعمل ضباط الخدمة العامة على التغلغل في الأوساط الثقافية والحماهيرية في الدول المبعوثين إليها . ويسهل عليهم ذلك معرفة لغة وعادات وتقاليدها البلد الموفدين إليها . والهدف المعلن من وراء ذلك هو محاولة إيجاد الطريقة المناسبة لترويج السياسة والمثل الأمريكية في المجتمعات الأجنبية . خلاصة القول أن عملهم يقتضى منهم استطلاع الرأى العام في الدول الأجنبية ودراسة ردود فعله المختلفة لسياسات أمريكا ومحاولة الوصول إلى أفضل الطرق البراجماتية لاستيعابه والسيطرة عليه .

والوكالة تعمل بالتنسيق الكامل مع سائر الأجهزة الدبلوماسية والدعائية والثقافية الأمريكية كفرق السلام والجامعات لتحقيق أهداف محددة ومرسومة .

وهو الأمر الذى يأخذه عليها السناتور " وليم فولبريت " (١) الذى يرى أن يكون عملها الأساسى دعم التعاون الثقافى والفنى والعلمى الخارجى ، كما يفعل الإتحاد السوفيتى وإنجلترا وفرنسا ، وليس استخدام الثقافة والفن لتحقيق أهداف سياسية محددة كثيراً ما تقتضى الترتط فى ألوان من التجسس والحرب النفسية والتخريب الثقافى ، مما دفع بعض الكتاب إلى تسمية هذا اللون من النشاط باسم : « الغزو الثقافى الأمريكى » .

ويصف هؤلاء الكتاب أهداف الغزو الثقافى الأمريكى بأنه توفير جو من الحماية للرأسمال الأمريكى فى تشعبه وانتشاره عن طريق الأجهزة الإعلامية والثقافية التى يجرى التخطيط لها على النحو التالى (٢) :

Bernal, Albert : "The Split Personality Of U.S.I.A.". Harper's Magazine (١)

Vol. 231 - Sept. 1965 - P. 116-124.

(٢) سامى منصور : « أقتعة الاستعمار الأمريكى » الفصل السادس - دار الكاتب العربى .

## ١- أجهزة الدعاية المعلنة :

وتعمل عادة على التمجيد في محاسن النظام الرأسمالى وعلى وجه خاص الأمريكى باعتباره من أفضل النظم لتحقيق الرفاهية وتوفير الحرية . صحيح أن هذه الأجهزة لا تهاجم النظم الاشتراكية مثلاً ، وهى تفعل ذلك ليس لأخلاقيات عملها ولكن لأنها لو فعلت لكانت ضمن أجهزة الدعاية المضادة لهذه الدول وبالتالي تعرضت لطائلة القانون . فهى تعمل على أساس أنها إذا لم تستطع تشويه الفكر والتطبيق الاشتراكى فعلى الأقل فى قدرتها التمجيد فى النظام الرأسمالى وتكون بذلك قد أدت نفس الغرض بل وبطريقة أفضل يقال عنها « دعاية غير مباشرة » .

## ٢- أجهزة الدعاية غير المعلنة :

مثل دور النشر التى لم يعرف عنها صلتها بأجهزة الحكومة الأمريكية ، وتعمل على تحريف الوقائع بل حتى التاريخ - تحرفه بالقدر الذى يتفق مع مصالحها مثلما حدث أخيراً فى الكتاب الذى نشرته مؤسسة « بريجر » الأمريكية عن الدومنيكان وظهر أنه من إعداد وتمويل المخابرات الأمريكية .

حتى السينما الأمريكية حينما تقدم أفلام الحرب تغير من أحداث التاريخ وتتابعها حسب ما تراه أجهزة الأمن والدعاية الأمريكية . . وقد أصبح هذا التحريف من كثرته أمراً مألوفاً لدى الجماهير . وهذه الألفة على المغالطة هى أكبر ما كسبته الأجهزة الأمريكية . فالأجهزة غير المعروف صلتها بالحكومة الأمريكية تعتمد على الكذب والتحريف . وهى لا تضع هذا الكذب أو تقوم بهذا التحريف بطريقة مكشوفة بل إنها تعمل فى إطار عام من الأكاديمية والموضوعية .

وشعار مثل هذه الأجهزة أنه إذا لم يكن من الممكن خداع كل الجماهير فعلى الأقل يمكن خداع بعضها . ومع الوقت تتسع قاعدة المخدوعين حتى تمثل أرضاً خصبة للعمل العائلى .

### ٣- استخدام سلاح الجنس :

فن خلال أفلام الجنس يتحول الإجرام إلى بطولة والقتل إلى عمل يثير الإعجاب ويقتن النساء . ويرغم مافي ذلك من بث لموجات الانحلال وخصوصاً بين الشباب والمراهقين إلا أن الأخطر منها أن الجنس غالباً ما يغطي قصص الحاسوبية . حتى لقد أصبح عملاء الحاسوبية أبطالاً لم شعبيتهم في كثير من دول العالم ، حتى إن كل الشباب يحلم بأن يجد نفسه في مكان البطل لما يتوافر له من وسائل الرفاهية والخمر والنساء .

ومرة أخرى فإن الجماهير إذا ما ألفت الحاسوبية كأمر بطولي يصبح من السهل من خلال هذه الأرضية الفكرية العثور على واحد أو أكثر في كل موقع ليقوم بنفس الدرر لحساب المخابرات الأمريكية ( بحضرنا هنا قصة الأسرة التي جندتها المخابرات الإسرائيلية بأكملها : الأب الفلسطيني الأصل والأم والأبناء الثلاثة ) . وإذا لم يصل الأمر إلى تقديم عملاء فيكفي أن أخطر الجرائم السياسية وهي الحاسوبية تصبح مع الوقت عملاً بطولياً تقبله الجماهير ، أو على الأقل تنظر إليه بإعجاب بدلا من أن تثير غضبها ويحركها للانتقام . وتصبح عملية التجسس في حياة الأفراد اليومية شيئاً روتينياً لا يثير حتى الاشمئزاز .

وليست مهمة هذه المؤسسات نشر الفكر الأمريكي فقط ولكنها تتجاوز ذلك إلى (١) :

( أ ) جمع المعلومات من المواقع التي تعمل فيها وإرسالها إلى الولايات المتحدة للاستفادة منها في أي عملية مجابهة . ومثال ذلك ما قام به مركز فورد في القاهرة من قياس اتجاهات الرأي العام المصري وعلى وجه خاص الشباب من قضايا القومية وفلسطين والاشتراكية .

( ب ) جمع أكبر عدد من المستفيدين من هذه الأجهزة فهي بحكم

(١) ساه منصور : المرجع السابق ذكره .

إمكاناتها تدفع الكثير ، والمعروف مثلا أن مؤسسة فرنكلين للنشر كانت تدفع في مصر أضعاف مافي قدرة أى ناشر آخر أن يدفعه مما جعل الكثيرين يتسابقون على التعامل معها أو على الأقل لإيجاد صلة بها . وليست المسألة مقصورة على أجهزة النشر بل إن مراكز برامج المساعدات توزع الهدايا مثلما فعلت إحدى هذه البرامج بتوزيع السيارات الفاخرة على بعض مديري التعليم .

( ح ) استغلال وجود هذه المراكز والمؤسسات لبعثة الإشاعات والنكت السياسية ، وقد قيل إن نكتة واحدة قبلت بصياغات كثيرة مختلفة في كثير من الدول قد ساعدت على وقوع عدد من الانقلابات في أمريكا اللاتينية .

وقليل من يعرف أن في إدارة المخابرات المركزية الأمريكية إدارة خاصة للنكتة السياسية . ومهمتها تلميق النكتة ثم إرسالها من خلال العملاء وغيرهم إلى مواقع التجمعات البشرية .

وتكون محصلة ذلك كله خلق ما ألف الناس عندنا تسميتهم « بالأمريكيين » فكراً وسلوكاً . وهم عنصر خطر على أى مجتمع وخصوصاً إذا كان المجتمع يترك الطريق أمامهم مفتوحاً للوصول إلى مراكز قيادية .

هذه الحقائق تؤكد أن النشاط الثقافى الأمريكى الواسع المدى لا يمكن بأية حال من الأحوال النظر إليه على أنه مجرد نشاط ثقافى خالص لوجه الله ، بل—وهنا تقبع خطورته — هو جزء من استراتيجية سياسية إعلامية عدوانية متكاملة ترمى إلى تدمير مقومات المجتمعات الأخرى أو احتوائها بإعطائها جرعات تدريجية من فكر مضاد يسمح فى المرتبة الأولى بحماية النشاط الاستعمارى الأمريكى بكل أفعنته . وهو ما يستلزم منا — نحن دول وشعوب العالم الثالث الحديثة الاستقلال والتي شقت عصا الطاعة على النظام الرأسمالى الإمبريالى مزيداً من اليقظة والتدقيق فيما يقدم لشعوبنا من غذاء روحى يوى ....

والواقع أنه إذا كانت للدعاية الخارجية الأمريكية سمات معينة ، فإن هذه السمات إنما تفرضها عليها طبيعة السيادة الخارجية للولايات المتحدة التي

تسهم المؤسسات الاحتكارية في صياغتها ورسمها ، وليس بخاف دور رجال الأعمال والعسكريين وسائر أصحاب المصالح الاحتكارية والعدوانية في انتخابات الكونجرس والرياسة .

خلاصة القول - كما يرى الكثير من المفكرين - أن الدعاية سواء على النطاق الداخلى أو الخارجى قد أصبحت اليوم جزءاً من العملية السياسية للدولة الحديثة ، وبشترك في التخطيط والإعداد لها رجل الدعاية ورجل السياسة معاً ...